رحيل

نور عبدالعزيز- مصر

" يقولون أن لنا من أسمائنا نصيب " قالت لي مبتسمة ، وأكملت متسائلة "كيف إذاً لتلك الـ رحيل عُمْر ؟! " قالتها وهي تشير بالسبابة إلى جسدها النحيل.

لم أكن أعرف بم أجيبها وأنا على الرغم من گونِي مفتول العضلات ، رقيق القلب جداً ! مؤمن بتلك المقولة ، لا ينفك عقلي من التفكير فيها ليل نهار ..

ربما أكثر

ربما وأنا نائم أيضاً تراودني الأحلام عن رحيل الـ رحيل ، وتين القلب وشغف الفؤاد ، " رحيل " هي حبيبتي وزوجتي في الدنيا والآخرة ،

هي أمي وإبنتي وما أنجبته لي أيامي الحلوة ، هي وهي وهي ...

بلا انقطاع وددت لو استطعت وصفها بجميع كلمات اللغة العربية ولغات العالم .

عادت تهز يدي برفق وتطلب مني إجابةً لسؤالها المحيـّـر ، " ياا أنت ، أجبني ، أين ذهبت بخيالك اللامنتهي هذا ؟؟ " قالت عاقدةً حاجبيها في هدوء حلو ..

ضممتها في أحضاني ، ظننت أنني سأحميها من أوجاع الحياة ، ظننت أنني سد منيع بينها وبين أحزانها الخفية ، ساتر صلب بينها وبين رحيلها !

هدأت على ضفاف قلبي ثم خلدت للنوم ، حمدت الله وقمت لأصلي ركعتين شكر لرب لم يخذلني أبدا .

تتناثر الكلمات حول أذناي فأبعِدها ، تطل الأفكار برأسها في عقلي المزدحم لا أستطيع الإفلات من قبضة تلك العرافة التي أخبرتني يوماً أن " رحيل " سيأتيها الموت بعد سبع سنوات أو مضاعفاتها !!

تلك المجنونة لو لم تخبرني ، لن تلعب الأفكار الشيطانية برأسي ، يا إلهي يكاد رأسي ينفجر .

في عيد ميلاد حبيبتي ال واحد والعشرون ، أثناء إطفائنا لشمع عيد الميلاد تدحرجت شمعة خبيثة لتشعل النار في البيت على حين غِرة منا ، ما جال بخاطري هو كلام العرافة حين أدركت أن الواحد والعشرون هو الثالث من مضاعفات الرقم سبعة !!

ولكن حمدا لله احترق البيت وذاك لا يهمني كثيراً ، بقدر ما أفرحني نجاة " رحيل من الحريق .

تمر الأيام علينا بلا مقاومة ، سلسة ، هادئة ، لا تشوبها شائبة ولا يعكر صفوها شيء .

تشتد الأزمات ببداية سنوات السبعة ومضاعفاتها ،

حُـفِر في ذاكرتي سنوات كفاحنا المـُرة ، خمس سنوات مررنا فيها بأحداث

جسام ، خمس سنوات من هول ما رأينا نعُدها خمسة قرون ، بعد سنوات الحب والحرب تلك ، تزوجنا :')

جمعنا وطن واحد ، وكأننا كنا في غربة قبيل لقائنا !

أما ما يعلق في الذاكرة واضحاً جلياً هو عيد ميلادها الثامن والعشرون فبعدما انتقلنا إلى بيت جديد وعشنا وتعايشنا مع جيران جدد ، أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ، فجأة أثناء حفلة عيد الميلاد وموسيقانا المفضلة تملأ المكان بالحب والحياة ، إنقض علينا كالأسد الشرس ، لم أنسَ ذاك اليوم حتى اليوم ، طعنات متفرقة في جسدي وجسد " رحيل " وكأنها حينها قد استسلمت فعلا للرحيل ، نقلتنا الاسعاف الي طواريء القصر العيني ، دخلنا في غيبوبة إلتقينا فيها ، أصابني الرعب حين استفقت ولم أجدها إلى جواري وحين سألت الطبيب أخبرني أنها لا زالت في الغيبوبة المزمنة ، ألا لعنة الله علىٰ القتلة ، حينها دبّ الخوف في عروقي حينما تذكرت ما قالته العرافة وأن ما حدث كان في عيد ميلادها الثامن والعشرون ، أي الرابع من مضاعفات الرقم سبعة !

حينها صرخت بأعلى ما أوتيت من ألم ، أتاني الطبيب مسرعاً متسائلاً عما حدث ، حينما أخبرته بمخاوفي إبتسم وطمأن قلبي أنه مازال باكراً جدا لرحيلها !

تمر الأيام وينقذها وينقذني الله ، دوما ما كان لطف الله سبّاقاً لأقدارنا □ لولا استعجالنا !

اليوم ..ليس ككل الأيام

عيد ميلاد زهرة عمري الخامس والثلاثون ..

إلى محل الهدايا وزينات أعياد الميلاد ، سأشتري كل ما تتمني ، كل ما تمنت وما ستتمنى ، اليوم وما أجمل اليوم ، ما أحلى أيامي معها ، يا ربي ما هذه السعادة الغامرة، قلبي يقفز فرحاً، كعكات محلاة بالسكر، بسكويت الشوفان، دوناتس، شيكولاتة بيضاء بجوز الهند، شموع بجميع الالوان المتاحه في المجرة، كل شيء اشتريته ل عشقي الوحيد وكل شيء في حياتي.

صعدت سلم المترو الكهربائي .. ركبت المترو وأخيراً وصلتُ إلى وجهتي في إحدي البنايات العتيقة للـ جاردن سيتي ، لا وقت لدي

حان موعد وتوقيت الاحتفال ، بدأت في ارتقاء درجات سلم العمارة ،

نظرت في شاشة هاتفي گي أرتب خصلات شعري، شهقت شهقة تكاد توقف قلبي عن النبض! ما هذا ما رأيته خلفي؟! لا يُصدق ..

استدرتُ ببطء للخلف فلربما گانت هواجسي ..

لاااااا .. العرافة !!! .. تلك المرأة العبوس .. حبيبتي وزوجتي لا لا ااا.

لطالما أبعدت تلك الأفكار والخزعبلات من رأسي ، لم بدت اليوم واضحة جلية ولم أتت تلك المرأة .

نظرت إليها في غضب شديد ولا أدري كيف صعدت السلم بسرعة البرق ، فتحت باب شقتنا

لأجد الـ " رحيل " في أبهىٰ صورها ترتدي فستاناً أسود منقوش بالزهور الوردية جالسة على أريكة في صالون بيتنا الصغير ، ما إن ولجت حتى احتضنتني باحتواء يسع المجموعة الشمسية بأكملها.

شعرت بدوار شديد جعلني أرتمي على الأريكة، أمسكت رأسي في ضعف بائن ، مالت عليا الـ رحيل بيدها المرتعشة متحسسة رأسي ووجها في خوف أقرب ما يكون إلى الرعب المميت ، ظلت عيناي َ عالقة بعينيها ، هاتان العينان اللتان رغم خلوهما من الألوان إلا أنهما سحراني ، عيناها التي كانت مرفأ الحنان الدائم ، عيناها كبحر في عتمة الليل تغرق في تفاصيلها الأخـّاذة ، ظلت ممسكة بيديّ وتصرخ ، أو تتصل بالمشفىٰ أو تجري وتعود في أنحاء البيت

" تعالي ي رحيل لم يعد يجدي ، تعالي بلا إرهاق أو تعب مـُدّي يد الحياة إليّ ..

لطالما مددت قلبك الزاخر بالعطاء لصحرائي القاحلة ..

تعاليْ يا رحيل ..

فلقد حانَ موعد رحيلي

بدلا من أن يمر شريط ذكريات عمري أمام عينيّ ، ظهرت لي تلك العرافة واضحة جلية ، ممسكة بتلابيب ثوبها ، تشير إلى بحركات غير مفهومة ، بفنجان مقلوب وعقد ينفرط وطير يذبح !

تفاصيل الموت غير مهمة تماما ، مايهم يا " رحيلي أننا سنفترق ، بعد كل تلك الأزمنة الغابرة سنرحل عن بعضنا البعض ، سينفك وثاق قلبينا ،

تعالي يا "رحيل ، تعالي إلى قلبي، عانقي شغاف قلبي ، سأشتاق لكِ كثيرا كثيراً ، مددت يدي فمسحت دموعاً تحدرت على خديها ، إرتخت يديه وأفلتت من يدها ، فكأنما صعـّدت روحها معه إلى السماء. . .